

أهلوس الأرب

إسخيلوس

للأستاذ دريني خشبة

—

ولد إسخيلوس عام ٥٢٥ ق. م في قرية^(١) كان يمكث أهلها على عبادة ديمترية الزراعة، وديونيزوس^(٢) إله الخمر، وهي قرية صغيرة متاخمة لقرية إيكاريا التي نشأ فيها الشاعر تسييز الذي يمزون إليه نشأة الدرام وقد ذكر لنا اسم أبيه في الأبيات التي أوصى أن تنقش على قبره حيث يقول:

هنا في سهل جيلا الثمر الخصب

يضم هذا اللحد رفات إسخيلوس بن يوفوريون

فتي أثينا، الذي شهد له الميديون

وعرفت بأسمه مرثون

ولقد برع إسخيلوس في الشعر منذ حداثة وكان يغنى

حلقات الشعراء ويدرس طرائقهم ويحفظ أناشيدهم فإذا خلا إلى

(١) إسها إليوزيس

(٢) إسها الكامل ديونيزوس زحوريوس

الإنجليزي . وقد ضمن الشاعر الإنجليزي Vohn Lydgate بعض أشعاره كثيراً من هذه القصص والحكايات العربية

ويعزو بعض علماء الأدب انتشار الأشعار النرامية الشعبية التي كانت ينشدها الموسيقيون التجولون في القرى الإنجليزية في القرون الوسطى إلى نفوذ عربي لشابها كثيراً للأشعار النرامية الأندلسية، وبخاصة الزجل، ويذكر أيضاً كتابين كان لهما الأثر في انتشار هذا النوع من الشعر النرامي وهي كتاب « الزهرة » لابن داود وكتاب « طوق الحمام » لابن حزم وموضوعهما الحب المذرى، وقد ترجما إلى اللاتينية^(١)

هذه فكرة إجمالية عن « أثر اللغة العربية في الثقافة الإنجليزية في القرون الوسطى » وسأعالج ذلك الأمر « في عصر النهضة » في العدد القادم إن شاء الله .
عبد العزيز أمين عبد الميبر

(١) أنظر مقال الأستاذ جب من الأدب العربي في كتاب تراث الاسلام

نفسه ردها وراح يهتف بها وقد راقته أغاني تسييز فكان يقلدها وينظر القامات على نسقها، ثم فرغ لنظم الدراماة الطويلة التي تار فيها على العرف فكتب له التوفيق حتى إذا انبتق فجر القرن الخامس قبل الميلاد، وبلغ الفتى السادسة والعشرين من عمره استطاع أن يشهد الناس فته في أكبر مسارح أثينا حيث مثلت أولى رواياته فبهرت الأثينيين وعرضت عليهم لونا جديداً من أدب الدرام كان ثورة عنيفة على الماضي ودعامة وطيدة لمسرح المستقبل

ولما نشبت الحرب بين فارس واليونان ألقى الشاعر يراعه وامتنق سيفه وأسرع إلى مرثون الخالدة هو وأخوه فأبليا بلاء حسناً ترك في نفس إسخيلوس أثراً عظيماً من الزهر والاعتداد لم يمحه نصف قرن عاشه بعد ذلك

ثم تلت موقعة مرثون التي استشهد فيها أخوه (٤٩٠ ق. م) فترة من السلام فرغ فيها إسخيلوس إلى أدبه واستطاع خلالها أن يحرز النصر على جميع منافسيه في حلبة الشعر للمرة الأولى في المسابقة العامة عام ٤٨٤ ق. م

ثم دعا داعي الوطن بعد ذلك بأربعة أعوام فترك أثينا مع جميع أهلها ليشارك في موقعة سلايس، وليتناضل فوق صفحة البحر في تلك الجزيرة المروعة التي ذابت فيها جيوش كسرى وحطمت أساطيله وفرأثناءها إلى بلاده بعد أن شهد الهزيمة ببينييه، فسلمت اليونان وسلمت أوروبا إلى الأبد من التبرير

وقد اشترك بعد ذلك في حروب تراقية عام ٤٧٦ كما تدل عليه جذاذات من ثلاثيته المفقودة المسماة (ليكورجوس) وفي سنة ٤٧٥ نظم مأساته (نساء إطنة) وكان إذ ذاك في سفارة سياسية إلى سيراكوزا

وقد رحل إلى سيراكوزا مرة أخرى، ونظم فيها درامته (الفرس) التي حازت الجائزة الأولى عام ٤٧٣

وفي سنة ٤٦٨ ظهر منافسه العظيم سوفوكليس في ميدان المسرح فجاءه ففاز على إسخيلوس بالجائزة الأولى، وكان لفوزه أثر بليغ في نفس إسخيلوس لم يمحه أن فاز (إسخيلوس) بعد ذلك بجوائز عدة كان يسيل لها لعاب الشاعر الشاب

وقد عاش إسخيلوس عشر سنوات لا ينسى هزيمة سنة ٤٦٨ حتى أن بعض المؤرخين يظن أنه هاجر إلى صقلية بسبب ذلك، ويقول بعضهم إنه كان كلما ذكر تلك الهزيمة الأدبية دمعت عيناه وتقم على الشاعر الشاب

ولعل عام ٤٨٤ ق . م هو أهم الأعوام في تاريخ الأدب اليوناني سيمياً ... وذلك أن مؤرخي هذا الأدب يجعلونه بداية الفترة الذهبية المجيدة ليس في تاريخ الأدب اليوناني فحسب ، بل في تاريخ الأدب الصرف قاطبة ، وهم يبدأونها بهذا العام الذي أحرز فيه إسخيلوس أولى جوائز الأديبة في المسابقة العامة بدرامة مفقودة قلب بها الأوضاع القديمة رأساً على عقب ، ووضع الدعامة القوية القويمة للمسرح الحديث ، حتى ليصح أن يطلق على هذه السنة : السنة الأولى لتاريخ الأدب المسرحي وهم يجعلون هذه الفترة بين عامي ٤٨٤ و ٤٣١^(١) حينما أحرز يوريبديدز أخرى جوائزته بدرامته الخالدة ميديا ... وعلى ذلك تمتد الفترة إلى ثلاث وخمسين سنة مثل فيها على مسرحي أثينا أكثر من ألف درامة منها تسعون لأسخيلوس ومائة وثلاث وعشرون لسوفوكليس وثمانون ليوريبديدز وأكثر من مائتين لشاعر عظيم لم يحفظ لنا الأثر اسمه ومئات أخرى لشعراء نعرف بعضهم ونجهل بعضهم الآخر ... وليس الكم فقط هو العجيب في هذا الإنتاج الباهر ، بل الكيف أيضاً هو الذي يسحر ويمت على الدهش ، فهذه الدرامات السبع الباقية فقط من إسخيلوس ، والسبع الباقية من سوفوكليس ، والثمان عشرة الباقية من يوريبديدز هي تروية فائقة من تراث هذه الفترة ، والقارئ يقف حياها ذاهلاً لمحق التفكير وجمال الأداء ؛ وقوة السبك ، وسمو الغاية والخلو من الزيف والبهرج ... وهي مع ذلك ليست أجل ما أبقت عليه يد المفاء من التروية الضائعة ، إذ أن أكثر الدرامات التي فاز فيها الشعراء بالجوائز الأولى ما تزال مفقودة ، والأمل مفقود على نجاح الكشف في أسكندريتنا للحصول على النمرر والنمرر من نتاج الدهن اليوناني العظيم .

وقد لا نجد في تاريخ الأدب المسرحي فترة تشبه هذه الفترة اليونانية إلا فترة الأربعين^(٢) الذهبية في تاريخ الأدب الإنجليزي في عصر اليصابات ، فقد كتبت ومثلت في هذه الفترة جميع درامات شكسبير ومارلاو وبن جونسون وبومون وقلتشر ومانسنجر وويستر وهابود ... الخ ... غير أن الشعراء الإنجليز في هذه الفترة كانوا على كل حال تلاميذ هذا السلف الصالح من شعراء أثينا ،

(١) عندما لويس كامبل مترجم إسخيلوس وسوفوكليس إل ٤٣٠ ق . م

(٢) يجعلها بعض مؤرخي الأدب الإنجليزي ثمانين وثلاثين سنة

وفي عام ٤٥٦ توفى نجاة في مهاجرة ودفنت رفاته في جيبلا . هذه هي أهم الوقائع في تاريخ حياة إسخيلوس . ولا نستطيع أن نتناول أدبه بالنقد أو التحليل قبل أن نقف قليلاً عند هذه الوقائع نستخلص منها ما يتفمنا في دراسته وما يكشف لنا عن نواحي نبوغه

وليس من شك في أن نشأة إسخيلوس الأولى ويثته كان لها أثر بعيد في أدبه . بيد أن هذه النشأة وتلك البيئة ليسا شيئاً إذا قيسا إلى الأثر الكبير الصارم الحاسم الذي تركه في نفسه خوض غمار تلك الحروب الدامية العنيفة التي شنتها على بلاده فارس ، والتي كانت حرباً بين جيش جرار كفيف يقدرون عدده بألف ألف أو يزيد ، وبين أمة بأكلها قليلة المدد شديدة البأس ساهمت جميعاً ، رجالاً ونساء وأطفالاً ، في آلام الحرب ، حتى لقد هجرت أثينا إلى إحدى جزائر البحر ، وقام رجالها في السفائن يصارعون المنون ويغالون الموت . ويهزأون بجيروت إجزرسيس ، حتى كسروا شوكته وظهروا على أساطيله وأطمعوا السمك ووحوش الماء لحوم أبطاله

لقد تركت مرثون في نفس إسخيلوس أثراً لا يمد له إلا أثر سلاميس ، وليس يعدل هذين الأثرين شيء آخر في نفس الشاعر الجندى الذي أخذ يبني عبده الأدبي على أكوام من أشلاء القتلى الذين أكلتهم هذه المجزرة الهائلة بين عدو قوى كثير المدد وبين أمة ضعيفة بمددها كثيرة بوطنيتها استطاعت يعضة آلاف أن تقهر أ كشف جند عرفه التاريخ

خرج إسخيلوس من هاتين المركبتين شخصاً آخر شديد الايمان بقوة السماء مكبراً لسلطان الآلهة أبعاً إكبار ، مقتنماً باليد العليا التي تسهر على الكون وتدبر أموره ، وترد الحق إلى المظلوم وتكبح جاح الظالم مهما كان ذا حول وطول وقوة . . . وقد ظهرت هذه الروح في أكثر دراماته التي نظمها بعد هذه الحرب ، وهي أروع ما نظم

أما سنة ٥٠١ فهي مفتتح القرن العظيم الباهر ، القرن الخامس قبل الميلاد الذي يزهي على الزمان بما أفاء على الإنسانية من علم وأدب ومن نور وعرفان ... وقد كان مطلعهم مطلع سعد لمبقرية إسخيلوس ، فقد مثلت أولى دراماته في أولى سني هذا القرن ، وسنه حينذاك لم تتجاوز السادسة والعشرين

وكثيراً ما سطوا على آذانهم واستباحوا أختلهم و- تمعلوا طرائقهم التي أوفوا بها على الناية

وكما تشابه الفرغان في الإنتاج الأدبي للـسرح فكذلك تشابهان في الباعث على امهضة الأدبية في كل منهما . فلقد كان الباعث في الفترة اليونانية هو هذه الحرب الضروس التي شنها فارس على اليونان والتي كانت مرحلتها الأولى في مراثون ، ومرحلتها الثانية في سلاميس حيث حطم أسطول إجرسيس ، مما أيقظ الروح القومي في هيلاس وأجج نيران الوطنية في قلوب الأثينيين خاصة ، جاءت النهضة الأدبية المسرحية وليدة هذا الروح أما الفترة الإنجليزية فقد جاءت عقب تحطيم الأرمادا الأسباني اللجب الذي أعده فيليب الثاني لغزو إنجلترا . . . وهذا التشابه في الباعث بين الفترتين يدل على ما بين الوطنية والأدب من وشائج قوية يزيد بها النصر قوة ويهد لها بمزيج عجيب من الحماسة والكبرياء يقابله مزيج آخر من المأسى والآلام

وبعد ، فإذا صنع إسخيلوس من هذا كله ؟ وكيف ثار ثورته على الماضي المتيق وشاد هذا البنيان الشامخ ؟ وما هي هذه المثل التي كان ينشدها ويسمل على إقامتها لتكون نبراساً للذهن اليوناني ؟ وإلى أي حد نجح في جهاده الشاق الجميل الطويل ؟ ومن ياترى كان عونه في هذا الجهاد الشكور للبرور ؟ وكيف يستطيع كاتب أن يستعرض كل هذا التاريخ ، وأن يلخص درامات إسخيلوس السبع أسرع تلخيص وأقصره في مثل هذه الفصول المقتضبة الضيقة ؟

روي المؤرخون أن إسخيلوس كان لا يأنف أن يرى النقص في إحدى دراماته فيمتز به قبل أن يأخذه عليه أحد من النقاد ثم يعمل على إصلاحه في الدراما التي تليها ، وقد يحدث أنه يفوز بالجائزة الأولى في إحدى المسابقات بـدرامة كان يشك أكبر الشك في نجاحها ، فإذا تناول الجائزة لم يابه أن يلفت الناس حوله إلى نواحي النقص في تلك الدراما التي حازت إعجابهم واستولت على شعورهم . . . وفي هذا دليل على أن إسخيلوس كان ينشد المثل الأعلى لفن الدراما ، وكان لذلك يدأب على عمل التجارب ليأخذ بالأصلح وليتوق ما لا غناء فيه ، وكان لا يأنف من الانتفاع بجهود الآخرين ونجاربهم ، وكان

يعنى عناية خاصة (بتكنيك) المسرح فكان بذلك أول المخرجين الأكفاء وأعظمهم . . . وهو أول من خفض عدد أفراد الخورس وزاد عدد الممثلين ، وجعل الغناء والإنشاد في المرتبة الثانية بعد الكلام والحوار . وهو أول من ابتكر الثلاثة ، أي المأساة الكبيرة التي تتكون من ثلاث مآس ترتبطها عقدة واحدة ويجمع بينها موضوع واحد . وقد كان يعتبر هوميروس مميته الأول ، فكان يقول إن مآسيه فئات من مائدة هومر ، لكنه مع ذلك ابتكر الدراما السياسية وانزعها من الأحداث الجلائل التي كانت يحدق بوطنه في ذلك العصر . . . وكان يعنى عناية فائقة (بالحكمة) الدرامية في مآسيه ويمجى في خلالها مجارب الحياة التي تمرس بها فكانت دراماته تشبه التماثيل الفنية الرائعة التي يعنى فيها الفنان بإبراز معنى خاص يجتهد في أن يبرز لأول وهلة للرأى فيملك عليه لبه ويستحوذ على إعجاب

وكان السراء من أهل أثينا وأغنياؤها يتسابقون إلى الإنفاق على درامات إسخيلوس ، وقد ثبت أن تركليس نفسه ، وهو سيد هذا العصر قد كان ال : (خورجيس Chorégus) (١) لا أكثر من درامة من درامات إسخيلوس

وأبرز ما يلفت الإنسان من دراماته هو هذا الروح السفسطائي الذي يشيع فيها جميعاً ، حتى لقد دعاه المؤرخون أول مبشر بمذهب السفسطائيين قبل أن يوجد السفسطائيون ، فهو الذي لم يبال أن يتناول في دراماته ذوات الآلهة بالنقد والتجريح ، ومهد بذلك لموجة الشك التي طفت على اليونان بعد ذلك . . . حقيقة لقد سبقه كثير من الفلاسفة إلى ذلك ، لكن أحداً منهم لم يجروا أن يمنع كما صنع هو حين قدم للمسرح درامته الخالدة العظيمة (پرومثير) والتي كانت ثورة على سيد الأولب فتحت الطريق على مصراعيه للملحد الأكبر وأعظم أدباء اليونانيين (پوريبيدز)

وكان إسخيلوس يؤمن إيماناً تاماً بالقضاء والقدر ، وأنه لا حيلة للإنسان في دفع ما يحل به من أذى ولا سبباً إذا تمت النكبة وكان يعتقد أن كل المصائب هي نتائج لقدمات تنتهي إليها حتماً ، وأن كل الأمور العظام هي كذلك نتائج لأمور أقل منها شأناً ، ومقدمات لأمور أخرى أجل منها وأعظم . . . وهذه هي وحدة الكون . . .

(١) هو الرجل الذي كان يلجأ إليه الشاعر ليؤجر له فرقة من المفسدين وليتولى الاتفاق على الدراما حتى تمتل